ارنست همنجواي : حيّ وسط الموت !

للناقد الروسي ايفان كاشكين

ترجمة سميرة عزام

في كانون الاول عام ١٩٥٤ كان ارنست همنجواي يقوم برحلة صيد جريئة في افريقية الوسطى فتحطمت طائرته على حدود الكنغو البلجيكية ، ولفترة ما شاع ان همنجواي قد لاقى حتفه ، ولكنه لما عاد الى نيروبي سالما وجد اكواما من الصحف حشدت بمقالات شتى عن موته فكتب يقول : « لقد اجمعت كل تلك المراثي او اغلبها على انني قضيت حياتي ابحث عن الموت ، وان الموت الذي طالما غازلته قد استطاع ان يظفر بي قريبا من كلمنجارو » .

وقد استمتع همنجواي فترة من الوقت (بقراءة المراثي التي قيلت فيه) الا ان صبره ما لبث ان نفد اذ قال محتدا : هل بوسع احد ان يتصور انسانا يدأب طيلة حياته على السعي وراء الموت فلا يتمكن من نيله طيلة اعوامه الاربعة والخمسين ؟ ان مقاربة الموت ومحاولة التعرف عليه شيء ، والسعي اليه شيء اخر . فهو ايسر المطالب التي اعرفها منالا . وقد اكد همنجواي في الكلمة على انه يرى نفسه – في الاحلام على الاقل – انسانا بالغ المرح والذكاء ، شغوفا بالحياة والناس الطيبين ، وبابنائه وزوجه ، وبالصيد ، وبالكتب الجيدة ، وبالشراب والقصص المرحة .

ومع ذلك فان التلميحات العديدة في المراثي تلك ، تشير الى ان جنوح مزاجه نحو موضوعات الموت والعنف لم يكن امرا عرضيا اطلاقا . فهذه التلميحات ليست الا صدى لمقالات تفضح عناوينها محتواها من قبيل (شريعة الموت) و (همنجواي والموت)و (مشاعل العنف) وقد ظهرت عام ١٩٣٢ ، ثم ظهر عام ١٩٤٧ مقال بعنوان (العنف والنظام) وكلها ، كما قال اندريه موروا ، مكرس لتناول ظاهرتي الموت والعنف في اعمال همنجواي . فالنقاد لم يتأثروا بعنوان بعض قصص همنجواي مثل (القتلة) و (موت بعد الظهيرة) و (من قتل قدامى محاربي فلوريدا) فحسب ، بل انهم تأثروا بفحواها ايضا ، ففي هذه القصص يبدو همنجواي كمن يسلم بأننا نلامس الموت حتى ونحن احياء ، انه لا يستطيع الا ان يستشعر الموت في مظاهر الحياة التي تحيط به، فالموت بالنسبة لدوره كراصد فني على الاقل ، هو احد الموضوعات الرئيسية للفن الذي يسجل مظاهر انحلال العصر .

فأي الفريقين كان على صواب ؟ همنجواي ام كتاب مراثيه ؟ يخيل الي لاول وهلة ان الكتاب هم الذين كانوا على حق . اذ لا تكاد اعمال همنجواي تخلو من موضوعات العنف والموت ، قد يكون السبب راجعا الى ان همنجواي نفسه قد خاض حربين عالميتين ، وحربين صغيرتين (مع ان احداهما كانت ذات اهمية عالمية من حيث انها كانت اول معركة مع الفاشية في اسبانيا) وقد جعلت الحرب همنجواي يرى الموت قناع او هالات بطولية ، وبالتحديق في وجهه الشرس اخذ همنجواي يعالج الموت الذي تصطنع له الوسائل ، كمظهر اجتماعي غريزي في هذا العالم .

لقد عزف همنجواي في الجبهة فظاظة العالم الذي يريد حل جميع وجوه الصراع فيه بواسطة الحرب ، عالم الذئاب الذي يناصر كل فرد من افراده الفرد الاخر .

لقد شهدت الاعوام التي تلت الحرب الكونية الاولى تمرد وانفلات ما يسمى بالجيل الضائع ثم ارتداد هذا الجيل جزئيا الى مهادنة المجتمع.

وباحساس هذا الجيل بانسحاقه وعجزه نتيجة تجربة الحرب التي خاضها ، وبتخوفه من ازمات اخرى وشيكة الوقوع وقع ابناؤه ضحية لمرض العصر الاجتماعي .

ونتيجة لمعاناة افراد هذا الجيل وفراغ قلوبهم تملكهم الشعور باقتراب شيء ما من النهاية .. انتهاء الامل والرجاء في الحياة .

ولقد اقترب همنجواي في الاعمال التي انجزها في تلك الفترة اكثر ما يكون من الفلسفة الانحلالية لبعض شخصياته التافهة . لقد اكتسب شهرة عالمية « كشاعر الجيل الضائع » وسواء كان ذلك منه عن وعي او دون وعي ، فقد طرح همنجواي انموذجا ادبيا يحتذيه ادباء ادنى منه فنا .

بعد النجاح الكبير الذي اصابه بعد صدور اولى مجموعاته القصصية وروايتيه الاوليين عاش همنجواي مرحلة مهادنة، فكف عن معالجة موضوعات المتسكعين الاغنياء الذين كان قد فضحهم دون رحمة، وبدأ يتردد على حلقات مصارعة الثيران في اسبانيا ، وذهب الى الصيد في افريقيا ، وزاول صيد الاسماك ، واستقر في فلوريدا ، ولم يكن يكتب شيئا يذكر خلال فترة سبع سنوات .

وفي اوائل الثلاثينيات – وهي فترة الهبوط المالي الفظيع – انصرف كثير من الكتاب الاميركيين الى معالجة الموضوعات الاجتماعية ، في حين ان استجابة همنجواي لمتطلبات الحياة الجديدة ، كانت بالغة البطء، اذ كانت سموم الجيل الضائع ذلك الجيل الذي تعود الاعراض عن الحياة اذ شعر بغظاظتها – ما تزال تسري في شرايينه .

لقد حاول عدم التفكير في تلك الحياة ، ولكن الصمت كان عسيرا ايضا . وكوسيلة للتفريج اخذ يتحدث الى نفسه كفنان ، فتخفف من

كثير من هذه الاعباء بالكتابة عنها .

وعندما حاول همنجواي ان يفهم ماذا كان يجري في العالم ، توصل الى النتيجة المرة التي عكسها في روايته « ثلوج كلمنجارو » عام ١٩٣٦

ومهما حاول « هاري »(*) الكاتب الذي يعاني من سكرات الموت ان يعزي نفسه بفكرة انه ليس الا مجرد جاسوس في بلاد الاغنياء الاغبياء ، تلك البلاد التي سيتركها حالما ينتهي من الكتابة عنها ، فانه رغم ذلك يظل رهينة في مخيم اولئك الذين يشاركهم الشراب والقنص والتحدث في الفن .

ان ادراك هاري لفداحة الثمن الذي دفعه قد اتى متاخرا جدا ، ذلك لان الثمن كان موتا جسديا ومعنويا وفنيا في ان واحد .

ان موت الكاتب هاري ضرب من التطهير الرمزي ، اذ ينفض به عنه جلدا ميتا ، ومع ذلك فلا سبيل هنالك الى الحياة سواء للبطل ، او للكاتب .

وفي الوقت نفسه كانت الحياة تجتاح انعزالية همنجواي مذكرة اياه بفصول عنف جديدة ، فهو كمخبر صحفي قد استنفذ كل ما يمكن ان يقال عن الموت المفجع لجنود فلوريدا ، وعن مجازفات موسوليني في الحبشة ، وعن المراحل الاولية للحركة الثورية في اسبانيا ، فكان ذلك كله بمثابة السهم الاخير ، فلما وقع التدخل لم يعد بوسع همنجواي ان يستكين الى الجلوس وراء مكتب ابدا . وقد حاول اكثر من مرة ان يسحق القلق الصحفي في نفسه فلا يقضي على موهبته ككاتب . فقد عرف بالتجربة اية جراحات عميقة يخلفها طلب الصحافة الاميركية الى مراسلها بان ينسى يوميا ما قد حدث بالامس ، ان ينساه باكثر من طريقة ، الا ان همنجواي ما زال يشعر بان شيئا في داخله يلح عليه بان يشترك في الحياة الحقة وكان هذا النفاذ الى عالم الحقيقة هو الذي اثرى موهبته ككاتب ، واعاده الى معالجة المواضيع التي كانت هامة انذاك .

ان الحياة في عالم يقوم على قوانين خسيسة من ابتزاز المال واجتراح العنف والموت ، لهي حياة قاسية . وخصوصا بالنسبة لمن هم فرائس للظلم الاجتماعي ، فقد كان ابرز ما تذكره « نك ادامز » بطل قصصه القصيرة الاولى من ايام طفولته ، مظاهر النسوة الشريرة ، كالانتحار في قصة « المعسكر الهندي » وجلد الزنوج ، والمشاهد الوحشية في الحياة اليومية في كتاب « في عصرنا » والمناوشة مع « القتلة » ، تلك المناوشة التي صرح (نك) على اثرها بضعف : (انني تارك هذه المدينة)

ان اعمال رجال العصابات ، والقتلة ، واحكام الموت ، واعمال القتل تملأ قصص همنجواي الاولى وروايته التي صدرت فيما بعد مثل « من يملك ومن لا يملك » To have and have not

و « لمن تقرع الاجراس » وهي تحفل باحداث الموت والخوف والعنف ، اي بالموضوعات نفسها التي عالجها كثير من الكتاب الذين رصدوا مظاهر انحلال العصر ، ابتداء من ادجار الان بو و امبروز بيرس وفوكنر وميللر ، وانتهاء بواضعي ومصوري القصص الهزلية .

على كل حال ان ما نعنى به هنا هو ليس نوعية الموضوع الذي تكتب عنه فحسب ، بل كيف تكتب عنه، واي موقف تتخذ .

ان جهود همنجواي قد تركزت في جملة قضايا كان يعود اليها مرة بعد مرة فاستطاع ببطء ومثابرة ان يضع منها اشكالا مجسمة ينفذ اليها مرة اخرى من زاوية جديدة ساعيا الى مزيد من الوضوح ، والى النظر اليها بعيني البطل نفسه الذي شخص تحت اسماء مختلفة المراحل المختلفة لسيرة المؤلف وابناء جيله .

كانت الحياة بالنسبة لهمنجواي شيئا لا ينفصل عن الموت ، بل هي صراع متقابل يتغلب فيه ابطاله لا على الخوف من الموت فحسب، بل على الخوف من تعقدات الحياة والتفكك الذي يهدد الفرد .

ان الحياة هي الحياة الحقة ، وهي العمل والقوة الخلاقة التي تمد البطل بالقوة للصراع .

قد لا يكون الهدف النهائي للصراع واضحا لديه دائما ، وقد لا يتمكن احيانا من ايجاد حل صحيح للواجبات المباشرة ، ولكن النقطة الجديرة بالتسجيل هي ان مشاكل الحياة الرئيسية تبرز مرة بعد مرة في كتبه ، ومن خلال هذه المشاكل تبرز فضيلة العمل المنشط الملهم ، وكانت هذه الفضيلة هي التي ساعدت همنجواي وبطله جيك بارنز(*) على الانفلات من الحلقة المفرغة التي كان يدور فيها متسكعو الجيل الضائع.

وتشمل تلك القضايا ايضا الصراع من اجل حياة لائقة، ذلك الصراع الذي لم ينفرد بحمل اعبائه افراد مثل شخصيات هاري مورجان ، وفيليب رولنجز ، وروبرت جوردان فحسب ، بل شاطرهم مسؤولية حملها رجال حرب العصابات الاسبان ايضا .

وقد كان لتضامن الشرفاء من النساء والرجال الوافدين من مختلف البلاد حظ من القضايا التي عالجها همنجواي ، وافضل صورة لذلك التضامن برزت في قصته السينمائية « الارض الاسبانية » كما ان فكرة همنجواي بان الحياة ذاتها يجب الا توفر بحجة ادخارها لقضية اعظم كانت تتلامح في كثير من اعماله الادبية ، كما تتلامح فيها ايضا قضية الانكسار السطحي الذي يخفي انتصارا داخليا على المستوى المعنوي كما يتمثل في شخصيتي ال سوردو والشيخ سانتياغو، او الهزيمة المؤقتة والنصر النهائي على المستوى التاريخي كما تتمثل في كتابه « موتى الاميركيين في اسبانيا .»

في معالجة هذه القضايا ، وفي التغلب على الصعوبات والشكوك، ينمو ابطال همنجواي وتتبدل فكرتهم عن معنى الحياة شيئا فشيئا حتى تتبلور . ان صراع الناس العاديين في سبيل حياة لائقة واتجاهاتهم البسيطة الصريحة نحو الحياة والموت تقوم كمثال لشخصيات همنجواي الاكثر تعقيدا وتناقضا . فهم جميعا يواجهون مشاكل الخوف والعنف والموت ، ويجدون لها حلولا مختلفة ، ولكن افضلهم يستمد الايد من الحياة والقوة والشجاعة .

ان البطولة والشعور بالواجب التي تجعل من جوردان مشابها لايل سوردو تحل محل الشعور باللامسؤولية الذي يتصف به ابناء الجيل الضائع ، كما ان الحركة التي تجعل من الشيخ سانتياغو مشابها لمبدعه همنجواي تحل محل قوة الاستمرار لدى ادول اندرسون .

وسواء كان ذلك بارادته ام رغما عنها فان همنجواي يبحث عن تأكيد الحياة متداخلة بالطبيعة على امل ان تخلد دوما في العمل الفني الذي يبدعه الاديب ، وفي النصر المعنوي للعمل البطولي الذي يخلده في خاطر الانسانية .

كتب همنجواي عام ١٩٣٩ رسالة قال فيها :

« طالما كانت هناك حرب قائمة فانت دوما تتوقع ان تقتل ، وعليه فليس هناك ما تشغل به فكرك ، الا انني ما ازال حيا ، وعليه فان علي ان اعمل ،ومما لا ريب فيه انك اكتشفت بان الحياة امر اكثر عسرا وتعقيدا من الموت ، وان الكتابة امر لا يقل عن الحياة عسرا . ولكنني سأثابر ما وسعتني الطاقة ، بالصدق الذي استطيع ، حتى اموت ، وامل الا اموت » .

من الممكن تفسير هذه الكلمات على هذا النحو : لقد واجه الكاتب في اسبانيا الجمهورية البطولة الواعية ، وقد بات من القوة بحيث يستطيع حمل اعبائها دائما ، ولذلك فقد استبدل شعاره الرواقي الكئيب (اعمل او تموت) بشعار لا يقل عن ذلك قطعية وهو (لا اموت حتى انجزه)

وفي جهاد الانسان لتأمين الحياة اللائقة لا بد له من وجود شيء يستند اليه ، وعليه ان يتغلب على العادات والتقاليد القديمة ، وان يتخلص من السلاسل المذهبة محتفظا بحريته الداخلية ، وان يرسخ الحياة بالحركة كعامل ، كبطل ، كفنان ، عليه بشحذ شجاعته للتغلب

(*) بطل قصة« ثلوج كلمنجارو

(*) جيك بارنز هو الذي جسد شخصية المعنين في رواية : (ولا تزال الشمس تشرق)

على خوفه من الحياة وخوفه من الموت ، على السواء .

ان القوة بالتثبيت من حقها يجب ان تكون قادرة عن صد العنف، وقد كان لهمنجواي ثارات قديمة على الفاشية ، فذكرى ما كان قد شاهده من قيام البوليس الايطالي باطلاق النار على الجنود اليوغسلافيين المنسحبين من مدينة « كاربوريتو » ، تلك العملية التي كان شاهد عيان لها فوصفها فيما بعد في روايته « وداعا ايتها الحرب » ، كانت ما تزال تراود مخيلته حتى وسط العمليات الحربية التي تتسم عادة بالضراوة ، وكان يرى فيها مثالا على وسائل الارهاب الفاشي ، فقال في خطاب القاه في المؤتمر الثاني للكتاب الاميركيين بان « الفاشية كذبة مفتر كبير ، وليس من سبيل لسحق المفتري الا بالسوط » .

وحتى في المجالات التي كان فيها ابطال همنجواي يلجأون للقوة في محاربة العنف ، لم تكن قوتهم تخلو من انسانية ، وكانت قوتهم بمثابة رحمة افرغت من القسوة والضعف ، فانسيلمو الصياد كان يجد قتل دب امرا من الصعوبة بمكان ، الا أن « انسيلمو » رجل العصابات كان يطلق النار على الفاشيين وهو يبكي.

في قصته (من يملك ومن لا يملك) تساءل همنجواي كيف يسع انسانا بسيطا ان يصمد ، وكيف يسعه ان يواصل غيره من الناس البسطاء ويتضامن معهم . وقد اظهرت له الحرب الاهلية الاسبانية اناسا كهؤلاء كانوا اكفياء بحيث يصمدون ويرفضون العنف الفاشي . وهنا ايضا اكتسب معرفة افضل برفاق السلاح، لقد كانوا رجالا شجعانا بسطاء وموهوبين ، تبنوا قضية الجمهورية العادلة . رجالا احبوا الحياة ولكنهم كانوا على استعداد لبذلها ، وفي اسبانيا استطاع همنجواي اخيرا ان يجد المقولة الصحيحة للغلبة على الموت ولدى تذكره الرجال الذين صدوا تيار العنف الفاشي بارواحهم قال في قصته السينمائية (الارض الاسبانية) : «عندما كنتم صغارا احظتم الموت باهمية عظمى ، اما الان فقد فقد اهميته في عيونكم ، انكم تكرهونه بسبب انتزاعه الاعزاء من بينكم » .

لقد ثبت له ان محاربة الموت تبدو على احسن حالات نجاحها عندما يعالج الموت كظاهرة اجتماعية .

وحتى في كتاب ذي موضوع هو اكثر ما يكون تناقضا وجدلية وافتقارا الى الاحكام والكمال الفني تبدو الغلبة على الموت مقنعة تماما للسبب ذاته الذي يورده الكاتب في تصوره لجزء معين من الصراع ضد الفاشية مهما تكن تلك الصورة مشوهة او ذهنية .

ان فعاليات الفلاحين ، ونهاية رجال ال سوردو المفجعة ، ونسف الجسر، واختراق اندريه خط النار لايصال الرسائل قد رسمت كلها بقوة وشعور عظيمين ، رغم البساطة المتناهية التي تبدو عليها .

ان روبرت جوردان يمثل على نحو ما مرحلة اخرى من مراحل تطور بطل همنجواي ، اما تينانت هنري فكان فاقد الامل والعزاء انى اتجه . ويموت هنري مورجان وحيدا مع جريمته ، غير مخلف سوى العداوات . لقد مات بسبب من فشله في تحقيق كسب ذاتي ، وبالرغم من انه كان نصرا معنويا ام واقعيا . ولم يخرج في النهاية بغير شعور مرير بالخيبة والوحدة . وما هو اكثر اهمية من ذلك ان مورجان لم يكن احد هؤلاء المتثقفين المتوحدين الذين كان همنجواي شغوفا بهم ومع ذلك فقد نجح في التوصل الى الحكمة التالية : ان رجلا بمفرده غير مستطيع ان يحقق شيئا . ان مورجان هو احد تلك الشخصيات البسيطة التي جذبت باستقامتها همنجواي الا انها مع ذلك بقيت خافية عليه .

تبدأ رواية « لمن تقرع الاجراس » بالعبارة التالية تجري على لسان « جون دون » « ما من رجل يستطيع ان يكون جزيرة تتمتع بنعمة الاكتفاء الذاتي »

ان جوردان مثله مثل سائر شخصيات همنجواي المشابهة انطوائي غير اجتماعي ، فهو لا يخرج من عزلته الا بقصد الدفاع عن جميع فقراء ومساكين العالم ، وموته وحيدا ليس الا النهاية المفجعة لجميع من هم على شاكلته .

ان عقدة جوردان تكمن في ان العبء كان اثقل من ان يقوى على حمله ، فهو لم يكن الشخصية المناسبة للدور ، كما لم يكن بنفس مستوى الاحداث والمشاهد التي كان مفروضا في همنجواي أن يعالجها على ذلك الصعيد الملحمي .

ان الكلمة الختامية التي تقول « لا تحاول ان تعرف لمن يقرع الجرس فهو يقرع لك » هي كلمات دون . ولكن قد يكون همنجواي قد استوحى فكرة الجرس من الشعار الذي كان مرسوما على راية « فيلق لنكولن » والذي يمثل ظلا لصورة قد تكون للنكولن لابسا طاقية اسبانية، وقد بدت وراءه صورة « جرس الحرية » .

لم يكن بوسع همنجواي او بالحري بطله جوردان ان يحتفظ بعزلته وعدم اكتراثه في الوقت الذي كان فيه الناس البسطاء الشرفاء يتقاطرون من جميع جهات الارض للدفاع عن شعب اسبانيا الباسل الشريف البسيط .

كما انه ليس بوسع القارىء ان يتحصن وراء شعور بعدم الاكتراث عندما يسمع جرس همنجواي يقرع ناعيا جوردان ، ولو لم يعد جوردان ان يكون صاحب تلك الشخصية التي عرفناها في الرواية ، وبالرغم من ان الرنين يبدو وكانه منبعث عن جرس متصدع .

لقد مات كل من جوردان وال سوردو ، ولكن ما اشد ما اختلفت لحظاتهما الاخيرة ، فال سوردو لم يكن راغبا في الموت ولكنه كان يعلم ان موته ضرورة حتمية ، وفي ذلك نهاية مشكوكة جميعها وبداية خطه البطولي . ان كان يعمل في الجبال الى جانب رجال العصابات بنفس الروح التي كان يقبل فيها على (تعشيب) حقل الحنطة ، محاولا ان يقتلع اكبر قدر من الاعشاب الطفيلية . كما كان جوردان يتحرق للوصول الى الاتجاهات نفسها ، فيحاول ان يتشبه بال سوردو وانسيلمو ولو كان ذلك مقتصرا على مواجهته الموت فحسب . فيخاطب نفسه قائلا « كف عن التفكير ، فانت الان مجرد ناسف جسور » . ولكنه لدى

في الاسواق :

موت سرير رقم ١٢

وقصص اخرى

تاليف غسان كنفاني

الثمن ٢٥٠ ق.ل

منشورات مكتبة منيمنة للطباعة والنشر

منير حسن منيمنة واخوانه ص.ب. : ٢٢٩٦
بيروت

قيامه بنسف الجسر تتخذ الامور منحى اخر . لم يكن للمؤلف من حاجة الى قتل جوردان ، ومع ذلك فان موت جوردان كان امرا حتميا . فيموت لا منافحا عن أسبانيا فحسب ، ولا عاملا على خلاص « ماريا » الفتاة التي يحبها ، ولكن من اجل نفسها ، وانجازا لواجب معنوي .

ان العالم الجهم الذي نشأ فيه جوردان لم يعمل على تحطيمه ، ولا اضطره الى التعامل مع الضمير كما هي الحال مع هاري مورجان. ان جوردان يموت منتصرا نصر معنويا لم يصبح جزءا من النصر المشترك او الهزيمة المشتركة . لقد حارب مع الجماعة ولكنه مات وحيدا . ولنذكر اية صورة متكاملة للحياة تنطوي بموت سوردو . ان قبول الانسان بالموت فكرة عسيرة سواء كان المرء خائفا منه ام لم يكن . ولقد تقبل سوردو الموت ، ولكن لم تكن ثمة عذوبة في تقبله بالرغم من انه كان في الثانية والخمسين ، ومصابا بجروح ثلاثة ، ومحاطا بالاعداء. لقد استخف بالموت فيما بينه وبين نفسه الا انه نظر الى السماء ، والى الجبال البعيدة ثم ارتشف جرعة من النبيذ رافضا موته وقائلا: « اذن كان لا بد من الموت ، ويبدو ان ذلك امر ضروري . ان بوسعي ان اموت ولكنني اكره ذلك . »

لم يكن الموت ليعني شيئا له ، اذ لم يكن يحمل في ذهنه اية صورة له ، ولم يكن يستشعر خوفا منه . الا ان الحياة كانت بالنسبة له حقلا من الحنطة تعبث به الريح ، وصقرا يحلق في السماء . وجرة مترعة بالماء في حقل انتشر جوه بتبن الدراسة ، وقد افرزت الحنطة وذري التبن . وهي حصان تركبه وقد ارحت مسدسك على احد فخذيك، وتل وواد وجدول ذو اشجار ظليلة على الضفتين وقد لاحت التلال والطرف الاقصى من الوادي عن بعد .

وهكذا فان ال سوردو يرى قبل موته كل مظاهر الحياة التي عاشها : العمل ، الفرح ، الحرية . انه يموت مفتح العينين ، ولكن باحساس حاد بتكامل الحياة حتى ليمكن القول بانه قد عاش حتى النهاية « حيا وسط الموت »

فماذا كانت الحياة بالنسبة لجوردان ؟ انه ليصعب تمثل حياته ككل . فهي تشكل مزيجا من الفكرة التحريرية « بان العالم مكان جميل مستحق التصارع من اجله » ومن الرغبة في الاشتراك في هذا الصراع ومن افكار عن كتاب يشتهي لو يكتبه . وصور اولية لذلك الكتاب المنتظر من اصوات الحياة والوانها ، وروائح كوبا وغاليسيا وموطنه ميسولا ، وصور ما تفتأ تدور في فكره المشوش : انتحار ابيه وجده ، وجندي الحرب الاهلية الذي يدعوه جوردان على نحو ما ليحكم على تصرفاته الشخصية وحبه الاخير ـ الذي يدنو من ان يكون محض عطف ـ للفتاة الاسبانية « ماريا » ، وامور اخرى كثيرة معقدة متناقضة غير مترابطة ، ادلهمت بفلسفته الرواقية الكئيبة حول تضحية غير ذات جدوى .

لقد كتبت رواية (لمن تقرع الاجراس) بعيد هزيمة الجمهورية في اسبانيا . وتوقف القتال مدة طويلة كما تبدى للكثيرين انذاك ، وابتدأ محارب الامس يشعر بانه فقد مقومات حياته . لذلك لم يجد همنغواي سببا للابقاء على حياة جوردان ، كما لم يقو على تخيل العالم الجديد الذي قد يكون بوسع جوردان ان يجد لنفسه مكانا فيه . وفي حين يعرض همنغواي مأساة الفرد المتوحد فانه لا يسقط من حسابه بطولات الكثيرين ، ففي اوائل عام ١٩٣٩ عندما لم يبق في اسبانيا من رجال الفرق الاجنبية سوى اولئك الذين دفنوا في الارض الاسبانية ، كتب همنغواي مرثية يمتزج فيها الحزن بالامل للموتى الاميركيين في اسبانيا، نشرها في مجلة « الجماهير الجديدة » ، وقد نضحت تلك المرثية بالايمان بالمستقبل ، وبالشعب الاسباني والارض الاسبانية التي لا يمكن ان تقهر ، هذه الاستجابة القلبية قد يمكن ارجاعها الى الفكرة البسيطة التي لم تتات لهمنغواي عرضا وهي : « بالرغم من موتك دون انتصار فان تضحيتك لم تكن عبثا ، وسيكون النصر من نصيبك » . ويبدو ان همنجواي قد وجد شيئا يستحق ان يموت المرء من اجله ، فلو اتيح لك ان تموت على الصورة التي مات عليها هؤلاء الرجال فان الموت الجسدي لا يعود يعني لك شيئا ، فيصبح بمقدورك ان تصيح وانت تلفظ انفاسك الاخيرة : « اين شوكتك يا موت » او ان تقول مرددا كلمات همنجواي الخاصة : « ان اولئك الذين توسدوا الثرى بشرف ـ وليس هناك من توسد بشرف يفوق شرف هؤلاء الذين ماتوا في اسبانيا ـ قد نالوا الخلود فعلا . »

انتهت الحرب الكونية الثانية بنتيجة لم تختلف عن النتيجة التي انتهت بها الحرب الاهلية الاسبانية ذلك ان الفائز الشريف الذي رآه همنجواي يقاتل في الجبهة لم ينل شيئا ، اذ حصل ثمار انتصاراته الانتهازيون وقناص الفرص . فعبر عن غضبه ويأسه من نتائج الحرب في قصته (عبر النهر وفي الغابات) ، ومرة اخرى التجأ الى بسطاء كوبا يعايشهم ، وفي كوبا كتب رواية (الشيخ والبحر) .

تبدأ الرواية بجو من الانهزامية مألوف في كثير من اعمال همنجواي، اذ يبدو ان النحس قد لازم الصياد الشيخ سانتياغو مدة طويلة بحيث ان شراعه القديم بقماش اكياس الدقيق بدا وكأنه راية تجسد معنى الهزيمة الدائمة . ولكن ذهن الصياد الشيخ الذي كان ما يزال متوقدا فيما يختص بعمله قد عام تحت تأثير السنين مما خفف من وطأة الامر عليه بعض الشيء . فلم يعد يحلم بالعواصف ، او بالنساء ، او بالاحداث العظمى ، او بالسمك الكبير ، او بالمعارك ، او بمباريات القوى، او بزوجه . ولم يعد لديه من الاهتمامات سوى توفير خبزه اليومي والتحدث الى الصبي عن مباريات البيس بول والحلم بالاسود الافريقية. ومع ذلك كان ما يزال مثابرا على مجالدة الحياة . ولغرض التفتيش عن الاسماك الكبيرة كان سانتياغو كثيرا ما يوغل في عرض البحر الى مسافات لا تسمح طاقته بركوبها ، مصارعا سمك القرش بعناد كي يمنعه من افتراس الاسماك التي اصطادها . ولكننا نتلمس من خلل عناد الصياد الغريزي نغمة جديدة ، اذ اعتاد همنجواي لسنين عديدة ان يردد فكرته الاثيرة المتلخصة في « ان المرء اذا ما اشترك في صراع ما فان عليه ان يربحه ، مع ان النصر غالبا ما يأتي متسربلا بثياب الهزيمة » . اما الصياد الشيخ فانه يعدل هذه الفكرة على النحو التالي : « ان المرء لم يخلق ليهزم ، قد يمكن سحق الانسان ، ولكن هزيمته غير ممكنة». ولكن التناقض ما يلبث ان يبدو مباشرة فالشيخ يبدو قديرا في فلسفته ـ الامر غير المألوف في شخصيات همنجواي ، اذ يقول الشيخ : « لا يهمني اي المتصارعين يقتل الاخر » ، وهذا ايضا يستتبعه تمجيد الشيخ لسمك القرش الذي اقبل يهاجمه .

وبمقارنة هذه الرواية بروايات همنجواي الاولى نجدها اكثر طواعية ورقة وقبولا بالتسليم . اذ يعيش الشيخ بانسجامه مع الجميع ، وهو محبوب من الناس البسطاء الذين يعايشهم ، لقد درج همنجواي قبلا على تصوير مواطن الضعف في اقوياء الرجال . اما الان فهو يكتب عن القوة المعنوية لدى صياد شيخ متداع . وهنا نلمس مزيدا من الايمان والاحترام للانسان ، ولكن الحياة نفسها كانت قد تقلصت الى الحدود الضيقة لرؤيا شيخ وحيد ، والغريب ان الخط الحاد الذي يفصل بين الاناس العاديين الذين يحبهم وبين بطله الرئيسي ، يلمس باكثر ما يكون في هذه الرواية ، ففي السابق كانت عواطف همنجواي وافكاره تتحيز بالدرجة الاولى للمثقف المتوحد الذي يحارب بشرف رغم اثقال الشكوك القديمة التي ينوء بها ، اما في هذه الرواية فهو يمنح جزءا من افكاره وعواطفه الى سانتياغو الشيخ . ان شخصية هذا الاخير تبدو اكثر تعقيدا من شخصيات الناس البسطاء الذين صورهم همنجواي في اوليات قصصه ، فسانتياغو يفكر بامور شتى خلال الرواية ، وهو كهمنجواي يعالج قضايا الشجاعة والفن ، وبالرغم من سوء طالعه نراه لايتنازل عن مهنته كصياد ، وهو لايقنع الا بكبير السمك، يصطاده كما يجدر بالصياد الماهر ان يفعل ، فيتسرب الى ذهنه الشعور بهزيمة مقبلة شبيهة بشعور جوردان اكثر منه بشعور ال سوردو . انه يحلم بالاشياء

نفسها التي قد يحلّم بها همنجواي صائد الاسود وما قد يفقده سانتياغو من استحسان يربحه في التعقيد والتلوين الذي تسربلت به الرواية، ان موهبة همنجواي الفنية هي التي تمكن للقارىء من الايمان بالصياد .

ان الرجل الشيخ يلجأ الى الاستعانة بالشباب ، فالصبي الذي يحدب عليه كان سندا حقيقيا له . وبدونه يصبح الشيخ عاجزا ومحكوما عليه بالفاقة .

كان ابطال همنجواي السابقون – بالرغم من الاحاديث العارضة التي يتبادلونها مع الغير – لا يكادون في الغالب يتحدثون الا الى انفسهم – اما سانتياغو الشيخ فلديه الان شخص ما يورثه خبرته ومهنته ، وعلى هذا المستوى ينفتح في الرواية مجال للمستقبل . اذ يبدو همنجواي وكانه يعود الى نقطة البدء ، ولكن بطريقة جديدة تماما . « يمضي جيل ويأتي جيل » . ومع ذلك فليست الارض وحدها هي المخلدة ، اذ يخلد ايضا الجهد الانساني كعمل منجز وكمهنة يتوارثها جيل عن جيل . ومع ان القصة تعالج موضوع الشيخوخة والعجز الا ان احدا من اشخاصها لايموت على غير ماهو مألوف في شخصيات همنجواي . والنصر ، ولو كان نصرا على المستوى المعنوي فحسب ، لاينال في هذه الرواية الا بثمن هو الحياة نفسها .

ان رواية « الشيخ والبحر » قد تكون محاولة لتجنب المتناقضات المؤلمة لفترة مابعد الحرب بالالتفات الى موضوع عالمي يكاد يكون مجردا من عنصري الزمان والمكان . وموضوعه يتناول جهدا مقداما لنيل هدف عظيم الا انه بالغ المحدودية رمز اليه همنجواي بالسمكة الكبيرة . ان العرض الواقعي المحسوس لقطاع صغير من الحياة كهدف تتناوله القوى العظيمة ، يستقطب اهتمامنا كقراء . الا ان واقعية القصة يشوبها ضباب مجازي ادى الى قيام تاويلات متعارضة لها .

ان اعمال همنجواي تغرس في الانسان حب الشجاعة والاخلاص للواجب ولكن بالنظر لافتقارها الى هدف نهائي يمكن ادراكه بوضوح فان ابطال همنجواي الرئيسيين – وحتى لو هم خاضوا غمار المعترك العام – يظلون مجرد رياضيين يشعرون بالوحدة ، فيستبدلون حقائق الحياة الكبرى بوقائع الرياضة الثانوية الاهمية . ان همنجواي لايؤمن بعقل وشرف الحضارة البورجوازية ، الا ان تهجماته عليها تنبعث من الماضي . فهو يستمد موضوعات مقالاته من اسبانيا المتخلفة ، وافريقية غير المتحضرة ففي رواية « لمن تقرع الاجراس » نرى مظاهر الحياة القديمة التي تكاد تكون قبلية ، ونستمع الى احاديث المزارعين والصيادين من رجال العصابات ، اما « الشيخ والبحر » فتعالج مهنة صيد السمك القديمة لمجرد كونها وسيلة لتوفير اسباب العيش الشحيح لفرد متوحد .

ان همنجواي ينكر القيم النفعية المفضوحة التي تسود اميركا الحديثة فيتوجه الى القيم الخلقية القديمة . وهو يسفه الازدهار القائم على النفاق والتقليدية طارحا شرعة خلقية من صنعه . وقد عرف التاريخ كثيرا من هذه الشرائع وكلها – على اختلاف تسمياتها – قد برهنت على تدليسها . ففي الامور والقضايا البسيطة الصغيرة لايكون ثمة مجال للمجادلة في قيمة هذه القيم المعنوية ، اذ ليس من سبيل للاعتراض على انسان لكونه شريفا ، او شجاعا ، او واثقا من نفسه ، ولكن حالما تطبق هذه القواعد بصورة ميكانيكية على ماهو اكبر من ذلك من متطلبات الحياة فان عدم ملاءمتها النسبية تتكشف لنا . وهذه القواعد التي تقتضي اتباع شرعة تجريدية غير رحبة غالبا ماتنطوي على تباين مع حقائق الحياة الكبرى .

ففي رواية « لمن تقرع الاجراس » نجد جنبا الى جنب شهادة شاهد عيان ومشارك ، ومحاولة لتقييم الاحداث فيما بعد تقييما لايخنقه ضغط الظروف فنخرج باتهام او تقرير من وجهة نظر جد خاطئة . وغالبا ماتكون الاستجابة هنا ضربة مباشرة على العدو ، في حين ان اعادة التفكير في الاحداث نفسها تتمخض عن صورة جد مشوهة لتلك الحوادث ، وهنا يسهل علينا ان نفهم بالتالي لماذا لم يعرف زملاء همنجواي السابقون في الحرب انفسهم في شخصيات الرواية .

ان كثيرا مما يفكر به جوردان بالاضافة الى تسامح المؤلف مع العدو بدعوى ان العدو يجب ان يلقى معاملة نبيلة ، كل هذا يعمل على تعكير جو الرواية ، ولنأخذ الفاشية مثلا على ذلك فندرك ان كراهية همنجواي لتظاهراتها كانت عنيفة دائما ، الا انه كان بالغ العمى في تسامحه مع جذورها ، ولهذا السبب هوجمت الرواية بشدة لدى صدورها من قبل المحاربين القدامى في الفرق الدولية ، كما انتقدت بحدة في الصحافة التقدمية .

ان همنجواي ليفتقر الى الاستعداد لتفهم وتقبل حقائق العصر الكبيرة فهو يتجنب عامدا التزام اي موقف سياسي ، وقد قال عام ١٩٣٤ « ان اصعب مهمات الحياة هي ان تكتب بامانة عن البشر . اذ يتعين عليك اولا ان تلم بالموضوع ، وعليك ثانيا ان تعرف كيف تكتب وكلا الامرين يحتاج اتقانه الى الحياة بطولها . وكل من يتذرع باتخاذ السياسة كمخرج لهو انسان مخادع ، ان ذلك امر سهل ، وكل منافذ الهرب يسيرة ، اما الشيء نفسه فصعب عسير . »

ان خطى افكاره بصدد السياسة واضح لنا ، ولا يحتاج تفنيده الى طويل جدل . اذ ليس هناك من عمل فني مهما سما بمستواه يخلد اذا ما انجز دون اعتبار للزمن او للسياسة السائدة . ونحن بالطبع لانقصد بالسياسة الدسائس الصغيرة ، بل نقصد بها الامور الكبيرة التي تؤثر في حياة الملايين من الناس ، فتجاهل هذه الامور يمتد من افق الانسان، ولهذا السبب جاءت انسانية ابطال همنجواي كئيبة ورواقية ، وتلك هي الانسانية الغامضة لدى اولئك الذين ادانهم التاريخ .

وقد قال همنجواي في كلمة القاها في المؤتمر الثاني للكتاب الاميركيين « ان مشكلة الكاتب لاتتغير . وتتلخص في كيف يكتب بامانة ، ولدى

صدر حديثا

أبيات ريفية

بقلم عبد الباسط الصوفي

قصائد رائعة للفقيد الذي

كان نسيج وحده في عالم الشعر

الثمن ٣٠٠ ق.ل – ٣٧٥ ق.س

دار الآداب

عثوره على الحقيقة فان عليه ان يعرضها بطريقة تصبح معها جزءا من تجربة قارئها » !..

ولكن اذا لم يكلف الاديب نفسه مشقة البحث في ماهية الحقيقة العظيمة ، « ومن ضمنها السياسة » فانه يصبح عرضة للسقوط في الخطأ القائل « انا جندي لاتهمني السياسة التي اعمت كثيرا من الناس الطيبين قصيري النظر وجعلت منهم اداة لغايات الاخرين الشريرة » .

وقد سبق لهمنجواي ان كتب عام ١٩٣٢ يقول : « دعك من هؤلاء الذين يريدون انقاذ العالم ، اذا كان بوسعك ان تراه كاملا وواضحا . » ثم اناط بالكاتب واجبا مستقلا اذ قال « المهم هو ان تصمد وتنهي عملك وترى وتتعلم وتتفهم وتكتب عندما يكون لديك ماتعرضه » .

ولكننا مع ذلك لا نفهم ماذا يجب ان يكتب الاديب، وكيف اذا بقي المعنى خافيا ، كما ان تتفهم لم توضح .

ان همنجواي نفسه قد قام بدور في محاولة انقاذ العالم من الفاشية وهو نفسه يقر « بان الجرس اذا ماقرع فانما هو يقرع ناعيا اياك » ، فلو اخذ المرء هذه الفكرة وعالجها بتوسع وطبقها على الحياة نفسها يرى انها تعني بان العالم الذي نحيا فيه هو ايضا العالم الوحيد الذي نحيا فيه انت وتعمل ، فاذا ما سمحت بدماره فان عملك بالتالي يصيبه الدمار . ثم دعنا نسأل لمن تعمل انت ؟ ونقول اكثر من ذلك انك برفضك انقاذ العالم ، او بمجرد تصريحك بذلك الرفض ، تكون قد سلبت نفسك فرصة رؤية العالم كاملا وواضحا كما اراد لك همنجواي ، فتغدو محاولة التعلم عديمة الجدوى .

ان ما يأخذه همنجواي خطأ على انه « الحقيقة » يدفعه احيانا الى ادخال عنصر بشع غير طبيعي على اعماله ، وهذا العنصر لاينشأ من طبيعة احلامه المفزعة وتوتر ذهنه فحسب ، بل لعله اسهام غير داع في تلك النزعة التي هي من سمات عصرنا ، نزعة الانحلالية في الادب الاميركي الحديث ، ان همنجواي يتنكب احيانا في احساسه بالنسب فتبدو على اعماله مسحة من الطبيعة ، وهذا صحيح فيما يتعلق ببواكير اعماله على وجه خاص ، الا ان اعماله التالية لم تنج من هذه المسحة ، ففي رواية « لمن تقرع الاجراس » نستمع الى رواية لبابلو الفوضوي عن قتل الفاشيين ، فنلمس فيها قسوة مسرفة لا مبرر لها كما تبدو لنا غير حقيقية بسبب من حيادية بابلو .

ان حالة « شبه الموت » لعالم همنجواي الذي اعتاد الكتابة عنه قد خلفت لديه توترا في التعبير الفني ، نوعا من السبات في معالجة الموضوع ، نوعا من الخدر الذي يسربل الحوار . فشخصيات بواكير قصصه كانت كتومة ،احاديثها عبارة عن منولوجات داخلية ، وهي تجهد دوما حتى لاتفرط في كلامها ، يرد الواحد منهم بنفسه على نفسه . ومع ذلك فان همومهم كانت متماثلة بحيث يستطيع الواحد منهم ان يفهم الاخر حق الفهم . اما التوتر الذهني فيبدو في الاهتمام البالغ بالتفاصيل ، وبتكرار تحليل التجارب ، اذ هي تقلق الكاتب فيسعى الى التخلص منها باللجوء الى اقصى التوضيح . واول خطوة في هذا الاتجاه سعي المؤلف الى تقديم عرض دقيق للعالم الخارجي يتيح له التهرب من التفكير . وهذا يفسر لنا سر الصفحات التفصيلية المطولة ، او القصص التي تعالج المهارة المهنية او الرياضة والصيد والجندية . فان لم يتم له الهروب عن تلك الطريق لجأ الى الحوار ، يكتبه بمزيد من العناية التي تساعد على صرف الافكار المزعجة عنه .

ان لغة همنجواي هي من صياغة قلمه الخاصة ، الا انه يبدو لنا احيانا كمن يقلد نفسه وما تزال تعلق بنثره المتألق حتى الان اثار عيوب قديمة ، وقد ظهر في اثنين من كتبه الاخيرة ارتداد الى حالة التوتر القديمة . وفي قصته الفاشلة « عبر النهر وفي الغابات » حوار غائم وهزل مصطنع ، وحتى روايته « الشيخ والبحر » لاتخلو في بعض اجزائها من تكرار مزعج وترداد مطول لحوار داخلي ، وافراط في التفاصيل . ولا شك في ان الفضل في استئثارها باهتمام القارىء دون فتور يعود الى مهارة همنجواي الفنية الناضجة .

ان بعض موضوعات همنجواي الاثيرة متناقضة في حد ذاتها . متبدلة مع الوقت . الموت العنيف المفاجيء ، وخلود الفنان ، « ولا يمكن الوصول الى الخلود الا على المستوى الاجتماعي » ، والموت ليس مجرد موت ، بل الشعور المسبق به من قبل رجل حي ، والهزيمة حتى ولو نتج عنها نصر معنوي ، والقوة غير المستغلة لغاية وجيهة ، قوة العبث ومن هنا كانت مأساة الرجل القوي والفنان القدير هي نفسها المأساة القديمة للمهارة الفنية المسخرة لمذهب الفن للفن .

ومع ان همنجواي يعترف بانه يسعى مجدا نحو موقف حيادي متسام مجرد ، الا انه لايستطيع ان يسكت رجل العصر في داخله ، ولا يسعه الا غربلة الحقيقة بواسطة غربال من تجاربه الاجتماعية . وهو متناقض حتى في هذا ، فبطله الرئيسي يشعر بانه منجذب الى كل ماهو بسيط وكامل وواضح في حين ان همنجواي نفسه معقد مشتت النفس ، ومأساوي فهو في استجابته السريعة للاحداث او الامور الصغيرة غالبا مايثبت بانه يفهم حقائق الحياة العظمى ، غير انه في عظائم الامور يكون عبدا للحقائق الثانوية ولما هو غير حقيقي !!

هناك كتاب « مجلون !. » يسعهم ان يكتبوا عن اي شيء !. وهم راضون بما انجزوا . وليس لدينا مانقوله عن هؤلاء . وهناك كتاب لايمسكون عن الكتابة المرة تلو المرة عما هو هام في نظرهم . وهم يحبون مظاهر الحياة شريطة الا تتدخل في اعمالهم ـ اعمالهم ككتاب ـ ولكنهم في الوقت نفسه يشعرون بألم عميق لو ان الحياة ـ دون ان تتدخل في اعمالهم ـ تمر باعظم انجازاتهم مر الكرام .. وهمنجواي واحد من هؤلاء !!

ان بعض ابطال همنجواي لاينهزمون امام تعقيدات الحياة كمانويل جارسيا ، وبعضهم قد علق « بالطعم » كاوول اندرسون ، وحري بهمنجواي ان يصنف مع الاولين . فهو حي وسط الموت .

ان امكانات الموهبة ، اذا هي لم تحتجب ، وكانت شغوفا بحب الحياة والناس ، لا حد لها . ومرة اخرى نعود لنتمنى لهمنجواي حظا سعيدا واستمرارية في الانتاج . اذ اننا واثقون من انه مايزال ينطوي على اكثر من كتاب واحد ، صادق وقوي وجريء ✱ !

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي
قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في ازمة الثقافة المصرية	لرجاء النقاش

✱ هذه الدراسة والحدة من جملة دراسات لنقاد مختلفين تناولت فن همنجواي ، وصدرت في اذار ١٩٦١ « قبل وفاة همنجواي » في كتاب عنوانه « همنجواي وناقدوه » Hemingway and his Critics .
اشرف على اعداده الناقد كارلوس بيكر . ولهذا دراسة مطولة عن همنجواي بعنوان « ارنست همنجواي : دراسة في فنه القصصي » نقلها الى العربية الدكتور احسان عباس .